مجلة الإحياء، المجلد: 23، العدد: 32، جانفي 2023، ص - ص: 653 – 660
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

الظاهرة الدينية في الفضاء العمومي عند يورغن هابرماس
Religious phenomenon in the public sphere for jurgen habermas

طالب دكتوراه حمزة طالبي[1] أ.د/ عبد المجيد عمراني
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة باتنة1
مخبر حوار الحضارات والعولمة LDCM
Amrani_ABd@yahoo.fr hamza.talbi@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2022/10/15 تاريخ القبول: 2023/01/09

الملخص:
شغل موضوع الظاهرة الدينية في الفضاء العمومي اهتمام رائد الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية "يورغن هابرماس". وتدور الإشكالية المحورية في هذا المقال حول مساهمة الطرح العقلاني التواصلي لهابرماس في تجديد الظاهرة الدينية داخل المجال العام. ويهدف هذا المقال لمقاربة رؤية "هابرماس" العقلانية التواصلية للظاهرة الدينية في المجتمعات ما بعد العلمانية (مجتمعات الديمقراطية). حيث عمل على استبعاد الدين من المجال العام في مراحله الفكرية المبكرة، لكن بسبب السجال الفكري بينه وبين فلاسفة ما بعد الحداثة، وعودة الحياة الدينية في الغرب، ألح على ضرورة التوجه نحو الدين. أما نتائج هذا المقال تتمثل في تحديث الوعي الديني، في محاولة منه ليثبت عقلنة الدين، ودينة العقل، ودور أخلاقيات الخطاب والمناقشة في تحديث الوعي والظاهرة الدينيين داخل الفضاء العمومي، وأهمية أسس التواصل البينذاتي للتخلص من الانغلاق الديني.
الكلمات المفتاحية: الظاهرة؛ الدين؛ هابرماس؛ الفضاء؛ العمومي.

Abstract:
The topic of the religious phenomenon in the public sphere occupied the interest of the second generation pioneer of the Frankfurt monetary school, Jurgen Habermas. The central problem in this article revolves around the contribution of the rational and communicative discourse of Habermas to the renewal of the religious phenomenon within the public share. This article aims to approach Habermas's rational, communicative view of the religious phenomenon in post-secular societies (societies of democracy). He worked to exclude religion from the public sphere in its early intellectual stages, but because of the intellectual debate between it and postmodern philosophers, and the return of religious life in the west, he insisted on the need to go towards religion. The results of this article are represented in updating religious awareness, in an attempt to prove the rationalization of religion, and the religiousness of the mind, the role of discourse ethics and discussion in updating religious awareness and phenomenon within the public space, and the importance of foundations for interpersonal communication to get rid of religious closure
Key words: the phenomenon; the religion; Habermas; the space; the public.

[1]- المرسل المؤلف.

مقدمة:

شهدت الظاهرة الدينية منذ النصف الثاني من القرن العشرين مقاربات فلسفية متنوعة قادها فلاسفة طالبوا بضرورة إحياء الدين عالميا وعودته كمقدس ضد الانحسار الديني الذي ميز مجتمعات العلمانية المتطرفة بحجة عقلنة العالم المعيش، ونشر التقنية التي أنتجها العقل الحداثي... الخ. ولعل ما جادت به مؤلفات رائد الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية "يورغن هابرماس" (1929- ؟) حول الظاهرة الدينية دلالة واضحة المعالم على عودة الحياة الدينية في المجتمعات الليبرالية الديمقراطية المعاصرة من جهة، والبحث عن فضاء عمومي جديد مليء بالإيمان ومتعدد دينيا، والسبب الرئيسي في انتقال "هابرماس" من نقد الديني إلى الانفتاح والتحاور معه هو التطرف العلماني الذي شهده الغرب على مستوى الواقع المعيش والسلطة في آن واحد. إضافة إلى التطرف الأصولي وما أنتجه من إرهاب أدى إلى تشويه الفضاء العمومي التواصلي.

إن مؤلفات "هابرماس" الدينية ذات الطابع العقلاني التواصلي تهدف لتأسيس مجال عمومي قائم على تحديث الوعي الديني بعقلنة الدين وديننة العقل، والتحرر من مختلف القيود التي استعمرت العالم المعيش إيمانيا، كالذاتية والعقلانية والعلموية التقنية والتطرف الديني... إلخ.

هنا يمكن بلورة الإشكالية المحورية كالتالي:

إلى أي مدى ساهمت الرؤية العقلانية التواصلية لهابرماس في تجديد الظاهرة الدينية داخل الفضاء العمومي؟

من خلال هذه الإشكالية أطرح المشكلات الثانوية كما يلي:

كيف انتقل "هابرماس" من مرحلة استبعاد الدين إلى مرحلة التوجه نحو الدين داخل المجال العام؟ وفيما يتمثل تحديث الوعي الديني في العالم المعيش؟ وما هي أسس التواصل البينذاتي للقضاء على الانغلاق الديني في المجتمعات ما بعد العلمانية؟

إن تحليل هذه الإشكالية يقتضي الإشارة للمخطط العام للمقال، بداية بالمقدمة ثم تغير الرؤية الهابرماسية للدين داخل المجال العمومي من الاستبعاد إلى التوجه نحوه، وتحديث الوعي الديني في العالم المعيش، وأسس التواصل البينذاتي للقضاء على الانغلاق الديني في المجتمعات ما بعد العلمانية، ثم الخاتمة كحوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها.

من مرحلة استبعاد الدين إلى التوجه نحوه داخل الفضاء العام عند هابرماس:

من منظور «هابرماس» ساهمت الحداثة بأسسها الثلاثة - رغم نقده لها - : الذاتية والعقلانية والعلموية التي انبثقت عن مركزية العقل الأنواري، في تلاشي المركزية الكنسية منذ القرن الثامن عشر (1700-1800م) التي أضفت الطابع الديني على كل مجالات العالم المعيش، وأصبح الإنسان بفعل التنوير ذاتا حرة في معتقداتها، وتحول التدين لمسألة شخصية، لأن «التنوير لم يغلق الباب أمام الدين ولكن أمام شكل من التدين كان يطلب السيطرة المطلقة على حياة الإنسان وعقله وجسده» (رشيد بوطيب، 9 تشرين الثاني 2013، هابرماس: عن الفلسفة والدين، http://alhayat.com/opinions). هذا ما جعل الماركسية - التي تأثر بها "هابرماس" منذ انتمائه لمدرسة فرانكفورت النقدية - كفلسفة معادية للدين، لأنه يشوه الوعي الإنساني ويزيفه، تعتبر - على حد قول كارل ماركس -: "الدين زفرة الإنسان المسحوق. روح عالم لا قلب له، كما أنه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح. إنه أفيون الشعب" (كارل ماركس، د ت، 6).

إضافة للتقدم العلمي الذي أعطى شرعية أكبر للعقل الإنساني في قدرته على تسيير العالم الإنساني بما فيه الديني (الروحي). وعلمنة الحياة في الغرب، فانتشرت عدة أفكار فلسفية تقر بموت الإله والإنسان ونهاية الدين... إلخ. أفرغت الوجدان الذاتي من القيم الإيمانية (الروحية) وحولته ماديا واستهلاكيا، فانحسر الدين من الحياة الخاصة والعامة على حد سواء، وتم تنظيمه داخل مؤسساته الرسمية فقط.

استنادا لهذا تأثر "هابرماس" بهذه النزعات الاستبعادية للدين كالمادية الملحدة، والوجودية العدمية، والعلموية المفرطة، فبدأ حياته المهنية المبكرة بانخفاض عمومي للدين، ولم يعطه الأولوية داخل الفضاء العمومي. يقول "وليام ماير" في مقالته «الإيمان الخاص أو الدين العام؟ تقييم وجهة نظر هابرماس المتغيرة للدين": "اعتقد هابرماس أن الدين أصبح ببساطة غير ضروري في الحياة الحديثة" (william meyer, 1995, 372). لكن موقفه الأولي هذا كان نتاجا لفهمه لتطور الأسطورة إلى الميتافيزيقا ثم إلى عقلانية التواصل، لأن الأساطير البدائية وبمساعدة القصص المثالية ساهمت في انتشار التفسيرات السردية. كذلك العقائد الدينية كرست مبدأ الحقيقة المطلقة التي لا يمكن تحديها، إلا أن انتشار العقلانية وتدفق الاكتشافات العلمية قلصتا دور الدين كمعيار للحقيقة، فأصبح نسبيا كغيره من مجالات الفضاء العام.

نظرا لتأثير التيارات المختلفة على الفكر الهابرماسي منذ نقد الحداثة، خصوصا منذ أن أطلق "ماكس هوركهايمر" جملته الشهيرة: "أن ننقذ معنى مطلقا دونما إله نوع من الغرور» (يورغن هابرماس، 2016، 175). التي بيّن من خلالها أن الدين يحقق الحنين نحو العدالة المكتملة، والخلاص الديني من أجل الأخلاق، ولهذا عمل على تعميق الدين بدلا من العمل على إلغائه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى انتشار الرؤى الداعية لعودة المقدس لدى فلاسفة ما بعد الحداثة مثلما دعا علماء الاجتماع المناهضين للعلمانية الذين ألحوا على ضرورة إحياء الدين عالميا، ومن بينهم «بيتر بيرجر» الذي قال: «العالم المعاصر يطغى عليه جنون ديني، وهذه الخصلة لم تنفك يوما عن المجتمعات البشرية، كما أن الدين قد انتشر في بعض المناطق التي لم يكن له وجود فيها سابقا" (Berger Peter, 1999, 2). كذلك الأنتروبولوجي "طلال أسد" دعا لأهمية قوة حضور الدين في مجتمعات الحداثة رغم الحصار الذي فرضته العلمانية على الدين في حد ذاته، فظاهرة عودة الدين (Resurgence of religion) لاقت رواجا واسعا باعتبارها تحمل أبعادا أخلاقية وروحية، والدين ليس مختفيا من الفضاء العمومي اليوم بدليل أهمية الحركات الدينية في معظم المجتمعات المعاصرة، إضافة لظاهرة عودة الدين وظهور الأصوليات الدينية التي كانت أغلبها رافضة للعولمة، تراجع عن موقفه الرافض لدور الدين في المجال العمومي، فكان لزاما عليه الإقرار بأهمية (قيمة) الدين في العالم المعيش نظرا لانتشار الحركات الدينية الإسلامية والمسيحية والبوذية والهندوسية... إلخ. منذ بداية سبعينات القرن العشرين (1970) عموما، وهجمات (11) سبتمبر (2001) خصوصا. ومن ثمة توصل إلى أن عودة الدين تمظهرت في الوقائع التالية:

- "انتشار الدعوات التبشيرية.
- ظهور الحركات الدينية الأصولية الجديدة.
- ظهور العنف الديني" (عزيز الهلالي، 2018، 86).

رغم أن "هابرماس" كان يؤكد أن الديانتين اليهودية والمسيحية تؤديان إلى الخلاص والنجاة من وحشية العالم الذي طغت عليه الماديات الناتجة عن الموضة الاستهلاكية، إلا أنه يتراجع عن موقفه، فيقول: "أما اليوم فإننا نشهد داخل المجتمعات الصناعية المتقدمة، وللمرة الأولى، فقدان الأمل بالخلاص والنعمة... وتظهر بعض المؤشرات أن التخلي الكثيف عن مبادئ الدين اليقينية المنقذة يؤدي إلى ارتسام هلينية جديدة،

أي إلى نكوص إلى ما دون المستوى الذي بلغته الديانات الكبرى التوحيدية حيث تتشكل الهوية في إطار الحوار مع الله الأحد" (يورغن هابرماس، 1995، 46 - 47).

وبالتالي، فالدين أمر لا غنى عنه، ولا يمكن التخلي عنه، لأنه كان ولا زال مليئا بالقيم الإيمانية التي تساعد مجتمعات ما بعد العلمانية على مواجهة أزماتها التي تسببت فيها التقنية خصوصا، فهو يمثل القوة الروحية التي تحمي الشعب من كل المشاكل التي تنبثق من خارج الوجدان، ومن ثمة فقيمته تتجلى في فائدته الوجودية، إذ يوفر العزاء والسلوان اللذين يستند إليهما المحتاجين أثناء حدوث الأزمات والأقدار، لأن العقل لا يمكنه تقديم إجابات تعطي الآمال أو تقدم المؤاساة.

تحديث الوعي الديني في العالم المعيش:

اقترح "هابرماس" ترجمة للمفاهيم الدينية لتحديث الوعي الديني من أجل توظيفه داخل الفضاء العمومي خصوصا الاجتماعي والسياسي، حيث يتناغم مع متطلبات العصر كل المتدينين دون تخليهم عن هويتهم الدينية، أو إقرارهم بأفضلية ديانة أخرى على حساب ديانتهم، لكن شريطة ولوجهم دائرة المشروعية التبريرية لتقديم الحجج المقنعة عقليا، وتفعيلها واقعيا للانخراط مع التعددية الدينية والعلمانية داخل الدولة الليبرالية، ومواجهة مختلف الخلافات بذهنية الحوار التواصلي، فمنذ أن "اكتسبت التقاليد الدينية وجماعات الإيمان أهمية سياسية جديدة غير متوقعة حتى الآن منذ المرحلة التاريخية التي شهدتها الفترة (1989-1990) " (jurgen habermas ,2008, 114).

أصبح ضروريا على المتدينين ترجمة المفاهيم الدينية بطريقة استدلالية إقناعية تراعي - خصوصا- المجالين الثقافي والسياسي للمجتمع، ومستعدة للانخراط في مختلف النقاشات والخلافات التي تحدث بين النزعات الدينية والعلمانية... إلخ. داخل المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، ولهذا "اعتبر [هابرماس] المسؤولية المعرفية [أي الترجمة التأسيسية للدين] عبئا ثقيلا يقع على كاهل جميع المواطنين دون استثناء، لكن غاية ما في الأمر نجده قد أكد ضرورة امتلاك المواطنين المتدينين رؤى ونزعات معرفية خاصة ومرنة لها القابلية على التوسع حينما يبادرون إلى عملية الترجمة العامة" (آرمان زارعي، 2017، 194 - 195). ولهذا لا يمكن أن تتحقق ترجمة محتوى النص المقدس إلا بالاعتماد على التأمل الهرمنوطيقي لتأويل الجوانب الروحية فيه لتتماشى مع مختلف التحولات المعرفية الحادثة، وقد وضع "هابرماس" ثلاث نواحي تجب مراعاتها لكي تتمكن المجتمعات الدينية التقليدية (مجتمعات العالم الثالث الدينية الأرثوذكسية) من تهيئة الأرضية المعرفية للمواطنين العلمانيين، وبالتالي تحقيق تعددية الترجمة للمقدس من المتدينين والعلمانيين، لأن التزام المذاهب الدينية بالدين الراسخ الدوغمائي لن يفتح المجال لتأسيس المجتمع الليبرالي، وتتمثل هذه النواحي فيما يلي:

- "يجب على المواطنين المتدينين أن يطوروا موقفا معرفيا تجاه الأديان الأخرى ووجهات النظر العالمية التي يواجهونها في عالم من الخطاب الذي لم يكن يشغله حتى الآن سوى دينهم" (jurgen habermas, 2008, 137). وهذا يتم بفضل ابتكار أسلوب حجاجي هدفه الفهم والإفهام لتفسير المعتقدات الدينية للمتدينين والعلمانيين الآخرين سواء داخل نفس الديانة والمجتمع، أو الديانات والمجتمعات الأخرى، وعدم احتكار الحقيقة بطريقة دوغمائية منغلقة تماشيا مع نسبية العالم المعيش على جميع المستويات.
- "علاوة على ذلك، يجب على المواطنين المتدينين أن يطوروا موقفا معرفيا تجاه المنطق الداخلي للمعرفة العلمانية للخبراء العلميين الحديثين. يمكنهم أن ينجحوا في هذا فقط إلى الحد الذي يتصورون فيه العلاقة بين المعتقدات العقائدية والمعرفة العلمانية من وجهة نظرهم الدينية بطريقة لا يمكن أن يتعارض فيها

التقدم المستقل للمعرفة العلمانية مع مواد الإيمان" (jurgen habermas, 2008, 137). ومن ثمة على المتدينين فهم علاقة المقدس الثابت بتطورات العلوم، مما يسهل فهمهم للفكر العلماني المتنامي، وعدم معارضته - بسبب التعصب الإيماني - لأنه لا يتماشى مع المعتقدات الدينية، بل مساءلته حجاجيا لينسجم مع المقدس من جهة، وتفادي السجال الفكري مع التوجهات الفكرية الأخرى القائمة على مقومات النهج العلماني - العلمي.

- "أخيرا، يجب على المواطنين المتدينين أن يطوروا موقفا معبرا تجاه الأولوية التي يتمتع بها الفكر العلماني على الساحة السياسية. هذا لا يمكن أن ينجح إلا بالقدر الذي تدمج فيه الفردانية القائمة على المساواة في القانون الطبيعي الحديث والأخلاق الكونية بطريقة مقنعة في سياق مذاهبهم الشاملة" (jurgen habermas, 2008, 137) ليتم لهم وللمواطنين تحديث وعيهم الديني الذي يسمح بقبول التعددية الدينية، لأن تحديث التدين فرديا واجتماعيا يجعل كل مواطن بإمكانه مواجهة تحديات العصر المتمثلة في التعددية الثقافية عموما، والدينية خصوصا، والتكيف مع انتشار العلوم ومجتمع المعرفة، واتساع النزعات الوضعية (العلمية) والأخلاق اللادينية كأخلاق المصلحة والمجتمع والعقل... إلخ. فبسبب ضغوطات الحياة المعاصرة خاصة الاقتصادية "ينسحب الأفراد أكثر فأكثر فزعين إلى فقاعة مصالحهم الخاصة" (يورغن هابرماس،2013، 40).

وهذا ما يرفضه «هابرماس» في نظريته التواصلية بين الجميع دون استثناء، لأن أفكاره الموجهة للمتدينين والمواطنين على حد سواء تساهم في تمكينهم من الانخراط بآرائهم في الفضاء العمومي استنادا للمحاججة العقلانية دون سواها، بالتخلي عن الإيديولوجيا الدينية المنغلقة المؤمنة بالحقائق الثابتة والبحث عن حقائق دينية من النص المقدس لمسايرة تحولات الحقيقة لدى مختلف النزعات الفكرية، ومساءلتها أثناء مختلف النقاشات الدائرة بينهما ضمن ما يصطلح عليه التداول الفكري والديني داخل المجال العام، فما "دامت الجماعات الدينية تلعب دورا حيويا في المجتمع المدني وفي المجال العام، فإن السياسة التداولية تمثل بالقدر نفسه نتاجا للاستخدام الشعبي للعقل من قبل المواطنين المتدينين كما هو من قبل المواطنين غير المتدينين" (يورغن هابرماس، 2013، 56).

أسس التواصل البينذاتي للقضاء على الانغلاق الديني في المجتمعات ما بعد العلمانية:

من المؤكد حسب «هابرماس» أن المجتمع ما بعد العلماني هو الذي تشكلت لديه الرؤية العقلانية لتجاوز الإقصاء والتهميش المتبادل بين الفكرين الديني والعلماني، إذ لا بد من تجاوز العنف المضاد، والسجالات الأيديولوجية بين المتدينين والعلمانيين، فمن جهة من الضروري عقلنة الدين وديننة العقل، وتهيئة شروط التواصل بينهما من أجل الحفاظ على استمرارية النزعات والجماعات الدينية داخل المجتمع ما بعد العلماني الذي يعلمن نفسه بنفسه من جهة أخرى، ففي ظل هذا التفاعل المشترك تحت راية الديمقراطية الليبرالية يكون المجتمع ما بعد العلماني علميا ودينيا في الوقت ذاته.

لهذا ألح "هابرماس" على ضرورة توظيف التواصل البينذاتي للقضاء على الانغلاق الديني الذي أنتج التطرف العقائدي والعنف بكل أشكاله خصوصا الإرهاب (الجماعات الدينية المسلحة) وذلك بسبب الخطاب المشوه بين الأطراف المعزولين عن بعضهم البعض داخل الفضاء العمومي، فكل طرف لا يعترف بالآخر، ومستعد لممارسة العنف على غيره دون رحمة وشفقة مثل هجمات (11) سبتمبر (2001). "فهول الكارثة الذي أمطرته سماء مشتعلة، بالمعنى الحرفي للكلمة، والقناعات المرعبة التي تكونت عن الاعتداء الغادر، والكآبة الخانقة المخيمة فوق المدينة [أي منهاتن]... تدفع إلى إثارة مشاعر غامضة من القلق متساوقة مع

جاهزية مجهولة المغزى، حملت الناس، في نيويورك، على أن يكونوا مستعدين للأسوأ، وهذا ما يريده الإرهابيون بالضبط. نتيجة لذلك، كان من الطبيعي أن تنسب هجمات الجمرات الخبيثة (بل اصطدام الطائرة في منطقة كوينز) [أي تحطم الطائرة التجارية في ناحية كوينز بنيويورك يوم 12-11-2001] إلى دسائس أسامة بن لادن الشيطانية" (جيوفانا بورادوري، 2013، 66).

على ضوء ذلك، ساهم الانغلاق الديني الذي قاده المتدينون المنغلقون في تفشي العنف المادي والمعنوي والرمزي بين المواطنين داخليا (بين الديانة الواحدة) وخارجيا (بين الطوائف من مختلف الديانات). مما استلزم حسب "هابرماس" الذي تعلم كثيرا من الكوارث، التأسيس للتواصل الفعال الذي يسمح للمواطنين المتدينين والعلمانيين المشاركة في بلوغ الاتفاق عوض الاختلاف من خلال دمج الدين في الدولة العلمانية، والحفاظ على قيمه المقدسة وتوظيفها في العالم المعيش، والاعتماد على أخلاقيات التواصل والتسامح والتداول الحجاجي لتحقيق الإجماع الذي لا يتعارض مع قوانين الديمقراطية التشاورية.

من أجل القضاء على الانغلاق الديني حاول "هابرماس" اقتراح آليات ذات مشروعية عمومية أخذت الأبعاد التالية:

توظيف القيم الدينية في العالم المعيش:

إن النقطة المحورية التي ركز عليها "هابرماس" هي المصالحة بين منجزات الحداثة الغربية كالعقلانية والتقنية والحرية والعدل والتضامن والانعتاق والديمقراطية... إلخ. والخطاب الديني الحامل لمختلف القيم الإنسانية كحقوق الإنسان وعدالة المساواة المستمدين من النص المقدس ذاته، فقد ورد في إنجيل يوحنا بالإصحاح الثامن الآية (32) ما نصه: "وتعرفون الحق، والحق يحرركم". كما ورد في سفر طوبيا بالإصحاح الثالث الآية (2) ما نصه: "عادل أنت أيها الرب وجميع أحكامك مستقيمة وطرقك كلها رحمة وحق وحكم". مما يعني أن الأصول المقدسة لقيم الحداثة هي التي أسست لحضور الدين داخل الفضاء العمومي، مما يجعل "الدولة الدستورية... تضمن أن تتعايش مجتمعات مختلفة من المعتقدات على أساس المساواة في الحقوق والتسامح المتبادل، مع أنها لا تزال غير محسومة على مستوى... عقائدها الموضوعية... فهي تحمي الطوائف الدينية ليس فقط ضد الآثار المدمرة للصراعات العنيفة بين الطوائف، ولكن أيضا ضد العداء تجاه دين المجتمع العلماني" (jurgen habermas, 2010, 7-8). فالعلمانية الهادفة لزحزحة الدين وإزالة قدسيته عن العالم منحت للدين ذاته مشروعية أكثر لمواجهة الشر الجذري الناتج عن مآسي الحاضر، مما يجعل الدين بقيمه الروحية آلية لمواجهة النزعات الاستهلاكية والأداتية المادية، ونشر قيم التضامن والتقوى والمحبة بين المواطنين في معاملاتهم.

تفعيل أخلاقيات التواصل والتسامح:

اعتبر "هابرماس" قبول الآخر المختلف عقائديا داخل البلدان الغربية أو خارجها خصوصا المتدينين التابعين للأصوليات الإسلامية، مشروعا مستمرا تستوعبه أخلاقيات التواصل والتسامح، فعلى صعيد أخلاقيات التواصل التي تعد جوهر العلاقات المجتمعية في المجال العمومي القائم على المناقشة بالمحاججة لبلوغ التفاهم بين المتحاورين، فإن "هابرماس" يدعو لتأسيس قوانين وضعية داخل الدولة الدستورية تراعي تعددية القيم الدينية التي تتجسد في النشاط الديمقراطي لكل الطوائف الدينية، وأحقيتها في المناقشة كلما أرادت ذلك شريطة أن تتجاوز إغواءاتها النرجسية الدينية، وأنها وحدها دون غيرها هي التي تحقق الخلاص، فأخلاقيات الخطاب تنص على أنه "لا يصح من معايير الفعل سوى تلك التي يمكن أن يوافق عليها جميع الأشخاص المتأثرين باعتبارهم مشاركين في خطاب عقلاني" (jurgen habermas, 1996, 90) .

بناء على هذا يكون الفعل التواصلي عقلانيا، ويمارسه كل شخص مهما كانت ثقافته ومحيطه الاجتماعي ولغته، لأنه مطالب بالانخراط داخل الممارسات التواصلية، والاهتمام بقضايا المجتمع العام، فعلى سبيل المثال المشتغلين بالفلسفة "يتميزون بإمكانية ممارسة نقد صارم تجاه العوارض الاجتماعية المختلفة - كنقدهم مثلا للمعاناة الخفية الناتجة عن سيطرة مجتمع الاستهلاك، البيروقراطية، النزعة القضائية المغالية، العلموية السائدة - وأخيرا، فإن الفلاسفة يمكنهم إظهار... الجروح الخفية للتهميش الاجتماعي والإقصاء الثقافي" (يورغن هابرماس، 2010، 65).

أما على صعيد التسامح الذي يعتبر أساس الثقافة الديمقراطية، لا بد أن يتم بين المتدينين من مختلف الأديان، وبين العلمانيين المطالبين باحترام آراء المواطنين المتدينين، بل واحترام غير المتدينين كالملاحدة مثلا، ومن ثمة يكون التمركز حول قيم التسامح هدف المتدينين والعلمانيين معا، لأن الخطاب الشمولي سواء كان دينيا أو علمانيا لا يؤسس لثقافة الانفتاح، ولهذا ألح "هابرماس" أثناء النقاشات التي خاضها مع البابا "بنديكت" السادس عشر، على ضرورة ترجمة اللغة الدينية لتتماشى مع معطيات العالم المعيش تماشيا عقلانيا لبلوغ الوعي المشترك بين كافة المواطنين، "لأن القوة الروحية لم تعد تتكثف إلا لحماية الشعب من التأثيرات الخارجية... وهكذا لم تعد تنصب إلا على ترتيب وترميز القيم، ودرء أي انحراف عنها وتوفير صيغة للدين تقي من أي سوء تفاهم، وتمنع أي تأويل مختلف" (يورغن هابرماس، 1995، 53).

لم يكن التسامح واحدا داخل البلدان الغربية حسب "هابرماس" بسبب تنوع الثقافات، ففي إنجلترا يكون" التسامح كشكل من أشكال السلوك... هو العمل القانوني الذي من خلاله تمنح الحكومة إذنا غير مقيد أكثر أو أقل لممارسة دين معين. في ألمانيا، يشير التسامح الأصلي إلى كل من النظام القانوني الذي يضمن التسامح والفضيلة السياسية للسلوك المتسامح" (jurgen habermas, 2008, 252).

الخاتمة:

تأسيسا لكل ما سبق يمكن استخلاص العديد من النتائج أهمها:

1- إن "هابرماس" برؤيته العقلانية التواصلية القائمة على أخلاقيات الخطاب والمناقشة ساهمت في تحديث الظاهرة الدينية داخل المجال العام، ما دام المتدينون لديهم الحق في التعبير عن نزعتهم الدينية القائمة على القوة البلاغية للدين ذاته، وضرورة الإصغاء لآرائهم من طرف العلمانيين أثناء الكلام في الدائرة العمومية، فالدين - حسبه - يحتوي على فائض قيمي يجب استنقاذه بترجمته ليساهم في نقاشات الفضاء العمومي من جهة، وصياغة القوانين بلغة التشريع المعاصر في المجتمعات ما بعد العلمانية من جهة أخرى.

2- الرؤية الهابرماسية للدين في بداية مسيرته الفكرية كانت استبعادية بسبب تأثره بالماركسية التي اعتبرت الدين وسيلة لتشويه الوعي، وانتشار الأديان الدوغمائية التي لا تسمح بتهيئة الفضاء المشترك والتداولي للحقيقة بين كافة المواطنين، لأنها تفرض نوعا معينا من الضمير على الأفراد لا يتماشى مع معطيات العالم المعيش، وساهمت في أزمة التطرف الديني. لكن بسبب دوغمائية وتطرف العلمانية ذاتها، وصعود الأصوليات الدينية وعودتها من جديد، بل وظهور أصوليات دينية أخرى منذ سبعينات القرن الماضي، ألح "هابرماس" على ضرورة إعطاء الدين موقعا شرعيا في المجال العام، لأنه يساهم بلغته البلاغية القوية في نقل الحقيقة وتبليغها، خصوصا ما تعلق منها بالقيم الأخلاقية.

3- انشغال "هابرماس" بتحديث الوعي الديني داخل العالم المعيش جعله يدعو لضرورة ترجمة قيم النصوص المقدسة لتسايره، إذ لا بد على المتدينين الانخراط في النشاط الديمقراطي، ومتابعة المستجدات في كل العلوم، والدعوة للتعددية الإيمانية لمختلف الطوائف الدينية داخل الدولة الدستورية.

4- التخلص من الانغلاق الديني في المجتمعات ما بعد العلمانية من منظور "هابرماس" مشروط بأسس التواصل البينذاتي بين كل المواطنين على اختلاف توجهاتهم مع مراعاة استثمار قيم المقدس في تعاملاتهم داخل العالم المعيش، والتحلي بأخلاقيات الخطاب والمناقشة والتسامح، فالفعل التواصلي السليم يقوم على إتيقا المناقشة المعترف بها قبليا، ويعبّر عنه بلغة مشتركة هدفها بلورة القيم الإنسانية خصوصا الأخلاقية منها، ووضع معايير يجب التقيد بها أثناء حل النزاعات بين المواطنين، أو بينهم والسلطة، ومناقشة الموضوعات في الفضاء العمومي المفتوح للجميع لتكوين رأي عمومي إجماعي قابل في الوقت ذاته للنقد والمساءلة المستمرة.

أخيرا نتساءل:

هل يمكن للرؤية الهابرماسية للظاهرة الدينية أن تتموضع داخل المجتمعات ما بعد العلمانية رغم انتشار الأصوليات الدينية، والعلمانية المتطرفة التي تبنت الفعل الإقصائي للآخر في بعض البلدان في الألفية الأخيرة للقرن الواحد والعشرين؟ وإلى أي مدى يمكن تجاوز الإنغلاق الديني بالعقلانية والفعل التواصليين في ظل بقاء دوغمائية الأديان، والأيديولوجيات المركزية التي أصبحت هي الأخرى توظف لأهداف براغماتية في الساحة العالمية؟

المراجع:

(1) آرمان، زارعي، (2017)، ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس – الدين في رحاب الحياة الليبرالية المعاصرة -، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العدد الثامن.

(2) جيوفانا، بورادوري، (يونيو 2013)، الفلسفة في زمن الإرهاب – حوارات مع يورغن هابرماس وجاك دريدا -، ط 1، ترجمة: خلدون النبواني، (الدوحة – قطر)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

(3) يورغن، هابرماس، (1995)، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، ط 1، ترجمة: نظير جاهل، (الدار البيضاء – بيروت)، المركز الثقافي العربي.

(4) يورغن، ابرماس (1999)، الدين والعقلانية – نصوص وسياقات -، ط 1، ترجمة: حسن صقر، (اللاذقية- سوريا)، دار الحوار للنشر والتوزيع.

(5) يورغن، هابرماس، (2010)، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ط 1، ترجمة: عمر مهيبل، (بيروت – لبنان) (الجزائر العاصمة)، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف.

(6) يورغن، هابرماس، جوديث بتلر، كورنيل ويست، تشارلس تيلر، (2013)، قوة الدين في المجال العام، ط 1، ترجمة: فلاح رحيم، (بغداد – العراق) (بيروت – لبنان)، مركز دراسات فلسفة الدين ودار التنوير للطباعة والنشر.

(7) كارل، ماركس (د ت)، نقد فلسفة الحقوق عند هيغل، د ط، من مقدمة الكتاب بطبعته الألمانية.

(8) عزيز، الهلالي، (2018)، عودة الدين إلى الفضاء العمومي في مساءلة المشروع العلماني، مجلة ألباب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود (المغرب)، العدد (12).

(9) رشيد، بوطيب، (9 تشرين الثاني 2013)، هابرماس: عن الفلسفة والدين، http://alhayat.com/opinion

(10) berger peter, (1999), the desecularization of the world, resurgent religion and world politics, (washington), ethics and public policy center.

(11) jurgen ,habermas, (2010), an awareness of what is missing : faith and reason in a post – secular age, translated by ciaran cronin, (cambridge), polity press.

(12) jurgen ,habermas, (1996), between facts and norms – contributions to a discourse theory of law and democracy -, translated : william rehg, (cambridge – massachusetts), the mit press.

(13) jurgen ,habermas, (2008), between naturalism and religion – philosophical essays -, translated by : ciaran cronin, (cambridge), polity press.

(14) william ,meyer, (1995), private faith or public religion ? The journal of religion, an assessment of habermas's changing view of religion, vol 75, n 3.